

هجرة العلماء الجزائريين نحو المغرب الأقصى خلال العهد العثماني: قراءة في الدوافع

والسياقات

The migration of Algerian scholars to Morocco during the Ottoman era: An Analysis of motives and context

د. مليكة عرايبي*

جامعة الجليلي بونعامة خميس مليانة - الجزائر

Maraibi@univ-dbk.m.dz

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2026/06/10	2026/05/22	2026/05/02

الملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية الأسباب التي تقف وراء هجرة عدد من العلماء للجزائر صوب المغرب الأقصى في الفترة العثمانية بشكل مؤقت أو بصفة نهائية، طوعية أو قسرا، بحثا عن بيئة يتوفر فيها الأمن وتكون أكثر استقرارا تدعمهم وتشجعهم على مواصلة الإنتاج والتأليف، وبذلك ستركز الدراسة على تشخيص دوافع الهجرة وتحديد تلك الأسباب المرتبطة بالجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي أثر إما تأثيرا في أدائهم لأدوارهم الدينية والإصلاحية التي أنيطوا بها باعتبارهم من أبرز المؤثرين والفاعلين الاجتماعيين ومن فئة النخبة المثقفة في المجتمع الجزائري، إلى جانب تحديد الأماكن التي استقروا أو انتقلوا إليها في المغرب الأقصى.

الكلمات المفتاحية: الأسباب؛ الهجرة؛ العلماء الجزائريين؛ المغرب الأقصى؛ العهد العثماني.

Abstract:

This research paper addresses the reasons behind the migration of a number of Algerian scholars to Morocco during the Ottoman period,

* المؤلف المرسل

temporarily or permanently, voluntarily or by force, in search of a safe and more stable environment that would support and encourage them to continue producing and writing. Thus, the study will focus on diagnosing the motives for migration, specifically those reasons related to the political, economic and social aspects that greatly influenced their performance of their religious and reformist roles, which they were entrusted with, as they were among the most prominent social influencers and actors and from the different greeting class in Algerian society. In addition to identifying the places and cities where they settled or moved to in Morocco.

Key words: Motives; migration; Algerian scholars; the far Maghreb; The Ottoman era.

مقدمة:

لطالما كان المغرب الإسلامي مجالا حيويا ومركزا لالتقاء واحتكاك المجتمعات العربية من الجزائريين، والمغاربة، والأندلسيين، والمشاركة، تجارا كانوا أم مثقفين، وبؤرة مشعة لتبادل الأفكار والتأثيرات المختلفة، الفكرية، والحضارية، والاقتصادية والسياسية، بالرغم من التقلبات السياسية الكبرى التي ميزت هذا الحيز الجغرافي الواسع، الذي أدى لتغير الأنظمة الحاكمة ونشوب صراعات توسعية دامية بينها لبسط النفوذ، إلا أنها لم تعق حركة تنقل المسافرين والمهاجرين، بل ظلت العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية قائمة ومستمرة.

يعتبر موضوع هجرة وتنقل الأفراد والجماعات من فئات مختلفة سواء داخل أو خارج الجزائر في الفترة العثمانية من الظواهر الاجتماعية التي كانت قائمة قبل القرن السادس عشر ميلادي، واستمرت في فترة الدراسة لأغراض ودوافع مختلفة، في طليعتها الأسباب الدينية والعلمية فقد كان الحج والرغبة في زيارة كبار مشايخ الصوفية والمرابطين وأضرحتهم للتبرك داعيا للتنقل من بلد إلى آخر، فضلا عن طلب بعضهم للعلم والحظوة والوظيفة الأمر الذي دفع ببعض الطلبة والعلماء للبحث عن مراكز وحواضر علمية تمكنهم من تحصيل معارف جديدة.

لكن لم تكن هذه الأسباب الوحيدة التي تقف وراء هجرة علماء الجزائر لمدنهم وموطنهم الأصلي، فالمتون المصدرية تكشف عن اعتبارات أخرى اضطرت هؤلاء لمغادرة البلاد، تتعلق بالأسباب السياسية والاقتصادية التي لم تكن مرضية لبعض العلماء والفقهاء الذين أبدوا امتعاضهم من الأوضاع السائدة، وعليه، نطرح سؤالاً هاماً حول طبيعة العوامل التي دفعت هؤلاء للهجرة نحو المغرب الأقصى خلال العهد العثماني؟ وبعبارة أخرى هل كانت هجرة العلماء قسرية أم اختيارية عززتها رغبتهم في طلب العلم ووجود بيئة علمية ثقافية ملائمة؟

1- الأسباب الداخلية:

تعزى هجرة علماء الجزائر نحو المغرب الأقصى خلال العهد العثماني إلى جملة من المحددات الداخلية التي جعلت بيئتهم الحاضنة غير مستقرة وغير مشجعة على مواصلة نشاطهم العلمي بما فيها التأليف، نذكر من هذه العوامل:

1.1- الاضطرابات السياسية:

تعتبر الحروب الداخلية التي عرفت الجزائر على مدار ثلاثة قرون من الزمن من أبرز العوامل التي دفعت بالعلماء للهجرة، فكانت هذه البيئة المضطربة التي انعدم فيها الأمن والاستقرار غير ملائمة بالنسبة لهؤلاء للاستمرار في العطاء العلمي وإبداء الرأي خصوصاً في النصف الأول من القرن 16م، فقد شهدت الدولة الزيانية في أخريات أيامها ضعفاً كبيراً على خلفية خروج العديد من القبائل عن نفوذها، ففي الجزائر استقل الشيخ سالم التومي بحكم مدينة الجزائر، وأعلنت قبائل تنس هي الأخرى العصيان، ليزداد الأمر سوءاً بمساعي بني وطاس في المغرب الأقصى لضمها وإخضاعها من جهة¹، وكذا سعي النفوذ الجديد (السلطة العثمانية في الجزائر 1516م) في المنطقة لضمها بقيادة الأخوين عروج وخير الدين بربروس.²

وقد أوضح صاحب "دوحة الناشر" ابن عسكر الشفشاوي الآثار الناتجة عن هذه الصراعات والاضطرابات خاصة في شقها الثقافي والعلمي أين أدت إلى تراجع الحركة العلمية

وتدهور التعليم، ليكون هذا سببا في هجرة واسعة لعدد من علماء تلمسان نحو المغرب الأقصى، وقد استفادت فاس باعتبارها من المدن المستقرة نسبيا من هذا النزوح العلمي، وفي هذا قال الشفشاوي أن فاس استقبلت: "... جملة فقهاء تلمسان لما رحلهم السلطان الغالب من تلمسان حين وقعت الفتنة بينهم وبين الترك واستغاثوا به فأمدهم بالأجناد ونقله إلى فاس..."³، من بينهم أبا العباس أحمد بن أحمد العبادي، وأبا العباس أحمد بن محمد العقباني.⁴

ولم يسلم علماء العهود الأخيرة من الوجود العثماني من مآلات انعدام الأمن وكثرة التمردات، فقد اتهم مثلا أبي راس الناصري بدعم وتأيد ثورة الدرقاوة⁵ والتيجانيين، بالرغم من أنه كان من أبرز العلماء الذين ساندوا سلطة الدايات، إلا أن موقفه هذا لم يكن كافيا لإبعاد الشبهات والتهم عنه والحيلولة دون عزله، الأمر الذي استدعى منه توضيح موقفه من هذه الأحداث، فألف في ذلك مؤلفه "درء الشقاوة في حروب الترك مع درقاوة" حيث قال فيه: "... ثم عمتنا ثورة درقاوة... فاتصلت علينا أواصر النكبات والبليات من الخوف والجوع والروع الذي في الفؤاد ..."، مما يوحي بأنه كان من معارضي ثورة الدرقاوة.⁶

2.1- إهمال الحكام للعلم والعلماء: بين الادعاء والواقع

وجه الباحثون الدارسون للوجود العثماني في الجزائر اتهامات وانتقادات لاذعة لحكام هذه المرحلة بسبب سياستهم التي خلت بحسبهم من أي مشروع ثقافي حضاري، بالرغم من امتلاك هذه الدولة آنذاك لأدوات النفوذ ومقومات الازدهار، التي لم تستثمر في تطوير الحياة الثقافية والعلمية مقارنة بباقي المجالات، وهو ما جعل الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يصف فترة الوجود العثماني بالصفحة السوداء من تاريخ الجزائر العلمي: "فما رأيت الجزائر عهدا من عهودها أجذب من العهد التركي في العلم، ولا أزهد من حكوماته فيه"⁷، وفسر هذا بطبيعة المجتمع التركي الذي كان مجتمعا عسكريا وحربيا لا مجتمع علم.⁸

يتوافق ذلك مع مسار حياة الحكام العثمانيين بالجزائر، الذين كانوا في مجموعهم جنودا وتلقوا تعليما عسكريا قبل أن يتولوا الحكم، مما يدل على ضعف مستواهم العلمي والثقافي الذي كان له دور بالغ في عدم رعايتهم للثقافة والعلماء بالقدر الكافي، وقد عزز الباحثون طرحهم هذا بقول القنصل الفرنسي فونتير دو بارداي الذي أشار في متن مؤلفه إلى وجود نوع من عدم الاندماج الثقافي بمجتمع المدينة، ومن ملاحظه عدم اتقان اللغة العربية والعثمانية لبعض الفئات كفتة الأغوات المنحدرين من الأعلاج.⁹

والحقيقة أنه يجب أن لا نستغرب من هذا القول، ونبني عليه هذا النوع من الأحكام، لأن الأصول الاجتماعية للأعلاج تفسر سبب عدم اتقانهم للغة العثمانية والعربية، فهم وفدوا على مدينة الجزائر من مختلف بلدان أوروبا¹⁰، فضلا عن أن اشتغال الكثير منهم في البحرية ساهم في الحفاظ على لغتهم الأم أو ما تعرف بلغة الفرنكا، حيث استمروا في استعمالها للتواصل والاندماج ضمن جماعتهم وباقي الأوروبيين، ومع حضر مدينة الجزائر الذين أتقنوها لحاجتهم لها في التجارة.¹¹

كما أن حديث بارادي عن هؤلاء يعود لفترة القرن 18م، وخلالها كانوا حديثي الانخراط في المؤسسة العسكرية التي كانت قبل صدور قانون الأمان سنة 1748م حكرا على الجنود ذوي الأصول العثمانية¹²، والذين كانوا بحكم طبيعة وظائفهم ملزمين بامتلاك اللغة المعتمدة في الإدارة بالجزائر، وهو ما أخبر به الأسير الإسباني ديبغو دي هايدو الذي عرفت كتاباته بتأثرها بخلفياته السياسية والثقافية، إلا أنه أقر وأكد على وجود أترك أحسنوا وأجادوا اللغة العربية والعثمانية.¹³

وبالتالي، يمكن رصد معطيات تاريخية حقيقية تبين أن القول بالإهمال ليس صحيحا دائما، إذا ما أخذنا بطبيعة الحكم والظروف السياسية والعسكرية التي أحاطت بالوجود العثماني في الجزائر، ولعل من تلك المعطيات أيضا ما أفصحت عنه العديد من الدراسات والمتون المصدرية

التي أطلعتنا عن مدى حرص الحكام على الانخراط في: "أعمال الخير، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد والمدارس والمنشآت العامة، وكانت دور العلم عامرة، وحلقات الدروس غاصة بالطلاب في كل مساجد المدن الكبرى، أما التعليم الابتدائي فقد كان يلقي في ثلاثة آلاف كتاب أو مدرسة ابتدائية...".¹⁴

ويوحي هذا أن السلطة العثمانية في الجزائر بالرغم من أنها لم توجد مؤسسات رسمية تعنى بالحياة الثقافية والعلمية، إلا أنها لم تعزل المبادرات الفردية التي أتت بعضها من دوائرها الرسمية، فقد أفاد صاحب مخطوطة "نبذة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران" بانتهاج الباي محمد الكبير لسياسة ثقافية أدت لانعاش الحياة العلمية، أين تكفل بكل الاحتياجات الخاصة بالطلبة والعلماء، ومن جملة ما ذكره قوله: "لم يفرط في شأن الطلبة، ولم يهمل ما كان يسرهم ويزيد قريحتهم للتعلم، وكان ينفق على طوائف الطلبة من خاصة ماله ويمدهم بالكسوة وما يحتاجون إليه... وكما أن يمددهم في غالب الأوقات بالمعونة والهدايا...".¹⁵

تجسد ذلك أيضا في عدم منع الحكام العثمانيين في الجزائر لحركة تنقل العلماء من الجهتين، ولم يضيقوا عليهم ولم يضطهدوهم ما دام هؤلاء لم يقحموا أنفسهم في الشؤون السياسية على نحو يعارض حكمهم أو يهدد وجودهم¹⁶، وهو ما ثبت عن فقهاء الجزائر فقد أشار ابن المفتي في متن مؤلفه لتولية علماء وافدين في مناصب دينية رفيعة كسعيد قدورة التونسي الأصل، الجزائري المنشأ، حيث: "تولى الفتوى بعد رجوعه من فاس بعد قراءته هناك، وأخذ إمامة مسجد البلاط ثم خطابة جامع سيدي رمضان...".¹⁷

في سياق دراسة دوافع هجرة العلماء نحو المغرب الأقصى، يلاحظ أن هناك عوامل متعددة تحكمت في اتخاذ قرار البقاء أو الهجرة، إذ ارتبطت بسياق من التحولات السياسية والعلمية، وفي هذا الإطار، يطرح أحيانا تأثير هذه الهجرة بسياسة السلطة اتجاه الفاعلين الدينيين من حيث الاختلاف في التعامل، إذ يرى البعض أن هناك تجاهل وتهميش لفئة العلماء، وهو ما

قد فهم على أنه ميل نسبي نحو بعض الأوساط الصوفية التي بذل لها الحكام الهدايا وأعطوها الامتيازات ومنحوا شيوخها نوع من الرمزية والقادسة كانوا أحياء أو أمواتا، بل واعتبروا الأماكن الروحية كالأضرحة والزوايا أماكن مقدسة يمنع المساس بكل من يلجأ إليها¹⁸، وبطبيعة الحال، يبقى هذا عاملا جزئيا ضمن مجموعة دوافع مركبة أسهمت مجتمعة في توجيه مسارات الهجرة لعلماء الجزائر.

2- الأسباب الاقتصادية:

تحدثت عدة متون مصدرية عن ميل علماء الجزائر لامتهان حرف إضافية إلى جانب مزاولتهم لوظائفهم الدينية كالتجارة، وقد تناول التمعروطي هذه القضية بالنقد في كتابه "النفحة المسكية في السفارة التركية"، مبرزا ما شاب سلوك بعض طلبة العلم الجزائريين من: "حب الدنيا وإيثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيرا..."¹⁹، فوجه إليهم النصح والوعظ، داعيا إياهم إلى عدم التركيز على تحصيل المال والاجتهاد والإقبال على الآخرة.

وبالرغم من أن قول التمعروطي في هذا الموضوع قد جاء ضمن الخطاب الوعظي الإصلاحية الذي ساد عند كثير من العلماء، غير أن ربط حديثه بشهادات علماء آخرين عاصروا هذه المرحلة يسهم في فهم وإبراز السياق الثقافي والاجتماعي الذي حمل هؤلاء وبعض طلبة العلم على الاشتغال بحرف ومهن إضافية.

وهو ما نبه إليه الراشدي في كتابه "الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني"، إذ يصنف ضمن العلماء القلائل الذين شخصوا مظاهر تدهور التعليم في البلاد، مرجعا ذلك في جانب منه إلى الظروف المادية لدى طلبة العلم والمعملين، وحتى بعض العلماء الذين عانوا وعاشوا في الفقر لضالة الراتب والأموال التي تجنى من التعليم في ظل عدم مبالاة السلطة، لذا، انصرفوا عن الاهتمام بالعلم وامتنعوا حرفا أخرى تدر عليهم المال، فيما فضل آخرون الهجرة بحثا عن وظيفة محترمة تساعد في تحسين مستواهم المعيشي وتمكنهم من التفرغ للعلم.

يستشف هذا في قول الراشدي، الذي بين أن عناية الباي محمد الكبير بالعلم وأهله عبر توفير رواتب دائمة للعلماء والطلبة، قد أفضت إلى تفرغهم للعلم وانكبابهم عليه، فمنذ: "رتب المدرسين في الجوامع بوظائف يأخذونها من الأحباس بعد أن كان العلماء لا ينتفعون من ناحية المخزن شيء... اتسعت حال العلماء وانشرحت الصدور للقراءة، وشرهت لها النفوس، وكثر طلبة العلم... واشتد الحرص على العلم من بعد أن كاد يترك اشتغالا بالتجارة لقلّة جدواه..."²⁰.

وعلى العموم، فإن اشتغال علماء الجزائر بالتجارة لم يكن أمرا جديدا، إذ ينتمي عدد منهم إلى بيوتات علمية عرفت بجمعها ما بين العلم ومزاولة النشاط التجاري، دون أن يشكل ذلك عائقا في فترات سابقة.

3- الأسباب الخارجية:

1.3- حياة ثقافية أكثر جاذبية للعلماء في المغرب الأقصى

اعتبر علماء الجزائر المغرب الأقصى من البيئات الثقافية المناسبة لتوفرها نسبيا على الأمن والعيش الكريم والفرص العلمية، في ظل اهتمام السلاطين والأمراء سواء كانوا وطاسيين أو سعديين بالحياة الثقافية.

ولعل من أفضل النماذج عن هؤلاء السلاطين أحمد المنصور السعدي²¹ (1578-1603م) الذي عرف بعنانيته ورعايته وتبجيله للعلم والعلماء المحليين والوافدين على مدن بلاده، فكان يتودد إليهم ويقربهم ويحسن إليهم، وقد طال إحسانه إلى: "من دون هذه الطبقة من طلبة العلم وإقباله على كل صنف منهم وتضعيف الجريات لهم وإيثار المجتهد وذوي الفهم منهم بمزيد من العناية والإقبال..."²²، وبفضل سياسته هذه التي جمعت بين الدعم المعنوي والمادي بتشجيع العلماء وتقريبهم وتحسين وضعهم المادي والمعيشي تفرغت النخبة المثقفة

للاجتهاد في طلب العلم وتنافست فيما بينها: "في اقتناء العلم والاحتراف بصناعته الشريفة لاعتزاز أهله وسعة أرزاقهم...".²³

الأمر الذي كان له أثر إيجابي من دون شك على الحياة الثقافية في المغرب التي أضحت تعج بأهل العلم، وتنوعت فيها العلوم، وازدهر التأليف، بدليل قول الفشتالي في مؤلفه المناهل: "حتى كثر حاملوه واستبحر جهابذته فتعددت المشايخ وكثر التلميذ ونبغ التأليف والتصنيف".²⁴

ومن بين العلماء الجزائريين الذين حظوا برعاية واهتمام أحمد المنصور السعدي الفقيه أبي سعيد الشريف أحد أعلام تلمسان وعلمائها المهاجرين إلى فاس، والفقيه العالم أبي عبد الله محمد التلمساني الذي آثره ورفع من منزلته، فكان: "...يؤثره بالموكلة معه في مائدته متى عن حضور بعضهم أو جميعهم في الحضر والسفر ويتاحفهم بهداياه وطرقه إلى منازلهم وأبياتهم وكل ذلك اجلالا للعلم ومحبة في أهل الخير...".²⁵

4- نماذج للعلماء المهاجرين: مراكز التواجد ومسارات الاستقرار

تكشف الهجرة العلمية للجزائريين خلال العهد العثماني عن وجود حواضر ومراكز علمية بارزة خارج مجال الجزائر، توزعت بين المشرق والمغرب، وقد شكل المغرب الأقصى أحد أبرز مراكز التوطين لهؤلاء العلماء المهاجرين من مدن الإيالة، مما أتاح لهم مواصلة نشاطهم العلمي، ومن بين من هؤلاء العلماء نذكر:

1.4- أحمد بن يحيى الونشريسي (توفي 914هـ/1509م):

يعتبر الونشريسي من أبرز العلماء الجزائريين الذين هربوا من تلمسان خوفا على نفسه بعد أن: "...حصلت له كائنة من جهة السلطان في أول محرم عام أربعة وسبعين فانتهدت داره

ففر إلى مدينة فاس واستوطنها...²⁶، حيث سكن بالقرب من جامع القرويين لما وجد فيها من عناية واهتمام وأمن.²⁷

تصدر الونشريسي إلى جانب وظيفة الإفتاء تدريس المدونة وابن الحاجب الفرعي والفقهاء والنحو بجامع القرويين²⁸، كما أنه ترك إنتاجا علميا غزيرا، من ذلك موسوعته التي انتهى من كتابتها سنة 901هـ/ 1496م أثناء تواجده بالمغرب، جمع فيها فتاوي المتأخرين والعصرين من علماء الأندلس والمغرب العربي²⁹، من أمثال نوازل البرزلي والمازوني³⁰، واشتهرت بعنوان "المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب"، وكذا إيضاح المسالك على قواعد الإمام مالك.³¹

يبدو أن الأحداث السياسية التي شهدتها مدينة تلمسان سنة 967هـ/ 1560م وانتهت بخضوعها مؤقتا لعبد الله الغالب السعدي كانت سببا رئيسيا في هجرة عدد كبير من فقهاءها ومتقفيها صوب المغرب الأقصى هربا بعد أن جاهر بعضهم بمساندتهم للتدخل السعدي ضد السلطة العثمانية في الجزائر، وفعلا، نال هؤلاء حظوة كبيرة وتقديرا خاصا على الصعيد الرسمي السياسي والشعبي، ليس لأنهم أيدوا الوجود السعدي المغربي في الجزائر فقط، بل لأنهم أثبتوا أيضا جدارتهم وتفوقهم العلمي بفضل تضلعهم في العلوم الدينية³²، ومن هؤلاء العلماء الذين هاجروا نذكر:

2.4- أبو العباس أحمد بن أحمد العبادي التلمساني (ت 980هـ/ 1572م):

كان العبادي من ضمن العلماء والفقهاء المالكية بمدينة تلمسان³³ الذين اختاروا الهجرة إلى المغرب الأقصى عندما اشتدت وطأة الحرب بين الأتراك العثمانيين وبني زيان، فأرسلوا لسلطانها الغالب طلب³⁴ لاستنجداهم الذي لم يدخر جهدا لمساعدتهم للخروج من مدينتهم: "...فأمداهم بالأجناد ونقلهم إلى فاس ووصل كلا منهم على قدر حاله، ووصله بألف مئقال ذهباً، وأمر له بكساء وإقامة جلييلة..."³⁵، وتدل هذه القرارات من جهته عن مدى ترحيبه

بالفقهاء وإيثاره لهم خاصة الفقيه أحمد بن أحمد العبادي الذي خصه السلطان المغربي بعناية فائقة ساهمت في شهرته وتحافت الناس على مجالسه ودروسه³⁶، فقد عجب الناس: "...من حسن عبارته وتحقيقه ونقله"³⁷، الأمر الذي أدخله في منافسة نظرائه من فقهاء وعلماء فاس، لهذا انتقل إلى مراكش ومن ثم رجع إلى تلمسان أين استقر أخيرا بمليانة.³⁸

3.4- محمد بن عبد الرحمن ابن جلال الدين التلمساني (ت 981هـ/1573م):

عرفه ابن عسكرب: "الشيخ الفقيه الخطيب المدرس المفتي أبو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن جلال التلمساني..."³⁹، مما يوحي بتعدد الوظائف التي زاوها أثناء إقامته بتلمسان التي شملت الإفتاء والتدريس إلى جانب ذلك كان إماما في علم الكلام، هاجر إلى فاس في عهد السلطان السعدي محمد الشيخ بعد أن تجددت الحرب بينهم وبين الأتراك العثمانيين في الجزائر، فقلده الفتوى بمدينة فاس، وتولى التدريس والخطابة في جامع الأندلس والقرويين.⁴⁰

4.4- محمد شقرون بن هبة الله (ت 983هـ/1575م):

هو الشيخ والفقيه وشيخ الفتيا أبو عبد الله محمد بن هبة الله المعروف بالسيد شقرون بن هبة الله، نزل هو الآخر فاس سنة 967هـ/1560م أيام حكم السلطان الغالب بحثا عن الأمن والاستقرار الذي يمكنه من الاجتهاد والتركيز على طلب العلم، وقد حظي هو الآخر كغيره من الفقهاء الجزائريين بالحظوة لدى سلاطين المغرب الأقصى، فقلده الغالب الفتوى ورياسة العلم بحاضرة مراكش وسائر أقطار المغرب، كما جعل له كرسيًا خاصا لتقديم درسه في قصره يحضره السلطان والأمراء، بالإضافة لتوليته الخطبة بجامع المنصور الكائن بقصبة الملك بمراكش⁴¹، من مؤلفاته شرح على التلمسانية في الفرائض.⁴²

5.4- أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد التلمساني المعروف بالوقاد (ت بمدينة

تارودانت 1001هـ/1592م): أصله من تلمسان وبها نشأ، ثم انتقل بعد التحصيل للوسوس الأقصى ونزل مدينة تارودانت، شغل عدة مناصب رسمية هامة كالخطابة والقضاء

والإفتاء والتدريس بمدينة تارودانت وسجل ماسية ومكناس⁴³، وبالرغم مما حظى به من اهتمام إلا أنه حذر الفقهاء من التعاطي مع الحكام، بقوله:

كل التراب ولا تعمل لهم عملا فالشر أجمعه في ذلك العمل.⁴⁴

6.4- أحمد المقرئ (992-1041هـ/1584-1631م):

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقرئ التلمساني، نشأ وتثقف في تلمسان، هاجر إلى المغرب وقد أرجع سعد الله أسباب هجرته نهائيا إلى فاس لتلك الفتن التي كانت بين الأتراك العثمانيين وسكان تلمسان، وخلال تواجده بفاس حظي باهتمام سلاطين المغرب الذين مكنوه بفضل علمه من العديد من الوظائف السامية، كالإمامة والخطابة والفتوى، وبالرغم من أنه مكث فيه مدة طويلة، إلا أنه غادره صوب المشرق مروراً بتلمسان واستقر فترة في الجزائر حيث تصدى للتدريس بها وقرأ التفسير على ما قيل في أيام إقامته.⁴⁵

وبحسب عبد الكريم الفكون فإن المقرئ ارتحل منها بسبب كثرة الاضطرابات والفساد، يقال: "إنه عن خوف من الأمير الذي تولى إذ ذاك لكونه، فيما يقال له خلطة بالأمرء والانتفاء إلى بعض دون بعض".⁴⁶

وقد أوضح الناصري في الإستقصا ظروف خروج المقرئ من المغرب، فقد أوزعها للأسباب السياسية والمتمثلة في استفتاء المأمون الناصر المطالب بالعرش علماء فاس، ومنهم المقرئ، على اقتداء أهله من يد الإسبان بمنحهم مدينة العرائش، ومما جاء في نص الناصري: "وأنتهم ما تركوه خرج بنفسه حتى ترك أولاده رهنا على ذلك فهل يجوز له أن يفدي أولاده من أيدي الكفار بهذا الثغر أم لا" فأجابه بعضهم بالجواز خوفا وامتنع البعض الآخر، فيما فر جماعة

من تلك الفتوى... كالإمام أبي العباس أحمد المقرئ مؤلف نفح الطيب فاختفيا مدة استبراء لدينهما حتى صدرت الفتوى من غيرهما...⁴⁷.

ترك المقرئ العديد من الأعمال والمؤلفات معظمها ألفها أثناء تواجده في المشرق التي بلغ عددها ثمانية وعشرين تأليفاً، ومن مؤلفاته التي دونها في المغرب أزهار الرياض وروض الآس.⁴⁸

7.4- أبو راس الناصري (1165-1238هـ / 1737 - 1823م):

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي، ولد في بيئة فقيرة جداً، وقد قدم وصفاً دقيقاً شرح فيه معاناته الشديدة لكسب قوت يومه، بقوله: "...وقد استمررت سنين عريانا، لا لباس لي، إلا خرق كالعدم، وما لبست نعلا إلى أن قرب صومي... قدرت على السعي صرت أطلب من البيوت، ثم أبيع وأكسى..."⁴⁹، بالرغم من أنه تمكن من تكوين علاقات جيدة مع بعض البايات، إلا أن وضعه المادي والاجتماعي لم يتجاوز معدل الفقر طوال سنواته التسعين.⁵⁰

ومن دون شك أن من أحد أسباب تروده على المغرب الأقصى ثورة الدرقاوة التي اتهمت فيها السلطة الحاكمة بالجزائر الفقهاء بالتحريض عليها ومساندتهم لها، وكان الناصري من بين أولئك العلماء الذين كانوا محل شك وريب لدى الحكام، فقد عزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء رغم مولاه للسلطة، وفي هذا قال: "ثم عمتنا فتنة درقاوة، وإننا لم نكن فيها كما قال الشيخ عامر الشعبي الحجاج..."⁵¹، ولعل هذا كان سببا في رجوعه للمغرب الذي اعتاد على زيارته منذ صغره، أين خاض سجالات وجدالات كثيرة مع علمائها في العديد من المسائل بحضور السلطان السعدي، وقد ألف في تطوان بعض كتبه وأهداه إلى السلطان سليمان.⁵²

خاتمة:

بناء على ما سبق نستنتج:

تعددت عوامل ودوافع الهجرة لدى علماء الجزائر في الفترة العثمانية، بين الدوافع الدينية والعلمية والاقتصادية والسياسية، ومن بين هذه الأسباب يبدو أن العامل السياسي والمتمثل في اضطراب الأوضاع الأمنية وتأرجح علاقة العلماء مع السلطة العثمانية بالجزائر التي لم تتبن سياسية ثقافية واضحة تستوعب آمال وطموحات النخبة المثقفة والعامة وتقربهم إليها وتوفر لهم العيش الكريم وتمنحهم الخطوة على حساب فاعليين دينيين آخرين كشيوخ الزوايا والطرق الصوفية من أهم العوامل الدافعة للهجرة.

أن علماء الجزائر فضلوا الهجرة نحو مراكز التبادل الثقافي الأكثر حيوية في العالم الإسلامي، منها فاس ومدن المغرب الأقصى حيث حظى العلماء بعناية وإيثار سلاطينها، ولعل هذا يفسر سبب هجرة علماء الجزائر نحو المغرب بكثرة.

في الختام، يمكن القول بأن الكثير من علماء وفقهاء الجزائر اختاروا مغادرة البلاد بصفة نهائية أو مؤقتة، أين فضلوا الاستقرار في المغرب الأقصى والمشرق طلبا للاستقرار والأمن والخطوة ولتسلم المناصب العلمية كالتدريس والفتوى والقضاء والخطابة، وذلك كأ أسرة الونشريسي والمقري وغيرهم، وما زالت بقايا تلك الأسر بهذه المجالات، وهو ما يفسر وجود العديد من المؤلفات والمخطوطات التي تعود ملكيتهم لعلماء جزائريين في أماكن متفرقة من المغرب والعالم الإسلامي الذين يحتفظون بجزء هام من هذا الرصيد العلمي والفكري الذي يشكل تراث الجزائر إلى يومنا هذا في مكتباتهم الخاصة والعامة.

- ¹ - دلندة الأرقش وعبد الحميد الأرقش وآخرون، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي، د، م، ن، 2003، ص ص 10 - 38.
- ² - يعتبر خير الدين من أوائل الحكام العثمانيين بالجزائر، تولى الحكم من 1519-1534م، وقد اختلف المؤرخون حول أصوله وتاريخ ميلاده، شارك رفقة أخيه عروج في تحرير السواحل الجزائرية من الإسبان، وتمكن من ترسيخ الحكم العثماني بالبلاد بقضائه على ثورة ابن القاضي 1521-1525م. ينظر: خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، شركة الأصل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص ص 21، 114، 128، 164 وغيرها.
- ³ - محمد بن عسكر الحسني الشفشاوي، دوحة الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977، ص 118 - 119.
- ⁴ - عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، الجزء الثاني، دار الأمل، د. م. ن، 2008، ص 112.
- ⁵ - تعتبر ثورة الدرقاوة من أبرز وأهم الثورات التي شهدتها الجزائر في العهود المتأخرة من الحكم العثماني، فقد اندلعت في منطقة الشرق الجزائري بزعماء ابن الأحرش الذي تذهب المصادر التاريخية لكونه ينتسب لعرب من المغرب الأقصى، كما نشبت ثورة أخرى لدرقاوة بقيادة ابن الشريف الدرقاوي في بايلك الغرب الجزائري ضد النظام العثماني في الجزائر، بسبب سخطه وتدمره من الضرائب والمغارم التي فرضتها السلطة العثمانية على السكان. للمزيد ينظر: الآغا عودة بن المزاري، طلوع سعد السعود، ج 1، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 2000، ص 368.
- Adrien Delpech, "Résumé Historique sur le soulèvement des Derkaoua dans la province d'Oran", in : R. A, N° 18, 1874, p 40.
- ⁶ - محمد بن أحمد أبو راس الناصري الجزائري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تقديم وتحقيق: محمد غالم، ج 1، منشورات cr asc، د. م. ن، د. ت، ص 20.
- ⁷ - أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي 1954-1964، ج 5، جمع وتقديم: أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الجزائري، بيروت، 1997، ص 117.

⁸ - نفسه، ص 117.

⁹ - بارادي فونثير دي، الجزائر خلال القرن الثامن عشر، ترجمة وتعليق: لخضر بوطبة، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2022، ص 108.

¹⁰ - Diego de Haëdo, Topographie et Histoire Générale D'Alger, Trad par Monnereau et A. Berbrugger, in R.A en 1870 et 1871, p p 62- 64.

¹¹ - فارس كعوان، "من مظاهر المثاقفة اللغوية في الجزائر العثمانية-لغة الفرنكا أنموذجا"، مجلة التاريخ المتوسطي، العدد 2، 2020، ص 220.

¹² - لمعرفة تفاصيل عهد الأمان، ينظر:

- Devoulx Fils M, "Ahad Aman, ou Règlement Politique et Militaire", in: R.A, n° 21, 4 Année, Février 1860.

¹³ - ديبغو دي هايدو، تاريخ ملوك الجزائر، ترجمة: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 189.

¹⁴ - أحمد توفيق المدني، هذه هي الجزائر، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1956، ص 73.

¹⁵ - مجهول، نبذة من سيرة الباي محمد فاتح ثغر وهران، مخطوط المكتبة الوطنية الفرنسية باريس، رقم 5022، ص 10.

¹⁶ - بن خروف، مرجع سابق، ص 121.

¹⁷ - حسين بن رجب شاولش ابن المفتي، تقييدات ابن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها، جمعه واعتنى به: فارس كعوان، بيت الحكمة، الجزائر، 2009، ص ص 95 - 97.

¹⁸ - حمدان بن عثمان خوجة، المرأة، تحقيق: محمد العربي الزبيري، ANEP، الجزائر، 2005، ص 73.

¹⁹ - علي بن محمد التيمقوتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم وتحقيق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط، 2002، ص 129.

²⁰ - ابن سحنون أحمد بن محمد بن علي الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، علم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 143.

²¹ - هو أحمد بن عبد الله عبد الرحمن بن علي السعدي الملقب بالمنصور بالله، يعرف أيضا بالسلطان الذهبي، وهو رابع سلاطين الدولة السعدية، نشأ محبا للعلم وأهله، متدينا، بدأت ولاية عهده بقيادة الجيش

في عهد أخيه عبد الملك أين اشترك معه في معركة واد المخازن التي قتل فيه هذا الأخير، وعلى إثرها بويغ المنصور على الحكم سنة 1578، ومن أشهر حملاته حملته العسكرية على تمبكتو، توفي سنة 1603م.
ينظر: عبد الله الشافعي محمد عبد اللطيف، موسوعة سفير للتاريخ الإسلامي، ج10، شركة سفير، القاهرة، 1996، ص 481.

22- أي فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، دراسة وتحقيق: عبد الكريم كريم، دون ذكر دار النشر، الرباط، 1972، ص 225.

23- الراشدي، مصدر سابق، ص 225.

24- نفسه، ص 225.

25- نفسه، ص 225.

26- أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديولي التلمساني، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، وقف على طبعه واعتنى بمراجعة أصله: محمد ابن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 53.

27- بن خروف، مرجع سابق، ص 122.

28- ابن مريم، مصدر سابق، ص 53.

29- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1998، ص ص 124-125.

30- ابن مريم، مصدر سابق، ص 54.

31- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 47.

32- إبراهيم حركات، "الصلات الفكرية بين تلمسان والمغرب"، مجلة الأصالة، العدد 26، 1 نوفمبر 1975، ص 189-190.

33- عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر - من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت - لبنان، 1980، ص 65.

34- هو أبي محمد عبد الله الغالب بالله ابن السلطان محمد الشيخ السعدي، تولى الحكم بعد وفاة والده ومبايعة أهل فاس ومراكش له سنة 1557م، حفظ القرآن وأخذ بطرف صالح من العلم وكان ولي عهد

أبيه، توفي في المغرب سنة 1573م. علوي بن عبد الله القادر السقاف وآخرون، الموسوعة التاريخية، ج7، موقع الدرر السنية، 2012، ص ص 495-496.

<http://shamela.ws/book/95543>

35- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 118.

36- بن خروف، مرجع سابق، ص 122.

37- ابن عسكر، مصدر سابق، ص 118.

38- نفسه، ص 118.

39- نفسه، ص 123.

40- نفسه، ص 123.

41- نفسه، ص ص 116-118.

42- محمد الجزائري ابن ميمون، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في الجزائر المحمية، تقديم تحقيق:

محمد بن عبد الكريم، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 71.

43- أبي زيد عبد الرحمن التمنارقي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، تحقيق: اليزيد الراضي وتقديم

محمد المنوني، دار الكتب العلمية، لبنان، 2007، ص ص 85-89.

44- نفسه، ص 88.

45- الفكون عبد الكريم، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتعليق وتحقيق:

أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1987، ص 223.

46- نفسه، ص 223.

47- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب - الدولة السعدية، تحقيق

وتعليق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الجزء 6، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ص 21-

22.

48- سعد الله، تاريخ...، مرجع سابق، ج 2، ص ص 217-219.

49- محمد بن أحمد أبوراس الناصري، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، حققه وضبطه،

وعلق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 19.

50- سعد الله، تاريخ...، مرجع سابق، ج 2، ص 377.

⁵¹ - ابن سحنون الراشدي، مصدر سابق، ص 49.

⁵² - سعد الله، تاريخ...، مرجع سابق، ج 2، ص 379.